

العاطفة الصادقة

هناك أفراد في المجتمع نراهم ممن يصفح بعنف وحرارة، ويؤيد ويحامل كل ما يقوله الآخرون، ويسأل عن أحوال الناس بسبب وبدون سبب، ويتدخل في بعض الأوقات في خصوصيات الآخرين، سواء طلب منه أو لم يطلب منه بحجة «الفرقة»

هؤلاء نراهم يختفون بمجرد أن يتعرض البعض من الناس لمصاعب وتجارب قاسية، بحيث يصبحون في أمس الحاجة، وبالذات في هذا الوقت للمساعدة من قبل هؤلاء الأفراد، الذين يتشدقون بالشهامة وإبداء الدعم في أي وقت، لذلك ينكشف معدنهم في هذه الأزمات، فلا تجدهم قريبين منك في الشدائد، وتبحث عنهم فلا تجدهم وكأنا الأرض بلعنتهم، هؤلاء الذين طهروا بمظهر المتعاطفين نحونا بحرارة ودفع.

هذا التناقض - بين ما يظهره الفرد وما يخفيه - يثير سؤالاً هاماً: لماذا هذا السلوك وما هو تعريف العاطفة؟

العاطفة هي عبارة عن مجموعة من المشاعر والأحاسيس - إضافة إلى الوعي والإدراك - التي تعكس ردة فعل الشخص تجاه المواقف والأمور الحياتية التي يواجهها في يومه، وهي في الحقيقة تشمل مجموعة لا متناهية من الطواهر النفسية، سواء كانت محدّدة تجاه حدث معين يرافقها بعض الانفعالات المرئية والواضحة للآخرين، أو تدفّق مفاجئ من المشاعر غير المرئية للآخرين «الموسوعة البريطانية» ومن خلال واقعنا الاجتماعي أثبتت التجارب الكثيرة أن هؤلاء الذين يلجأون إلى التكلّف في عواطفهم وزخرفة أحاديثهم بالكلمات الجميلة والجدّابة، إنما هم في الحقيقة أبعد الناس عن العاطفة الصادقة، فالعاطفة هي جمال الحياة، وهي تعطي صاحبها السعادة الداخلية، وتخلق فيه احتراماً لها، واستقراراً نفسياً يعبر عن رغبته في خدمة الآخرين ومساعدتهم والتعاطف معهم.

يروى «جواهر لال نهرو» - الذي يُعدّ أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند، وأول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال، وشغل المنصب من 15 أغسطس 1947 حتى وفاته - في قصة حياته، حادثة كانت موضع تأمله الطويل عندما كان في لندن «أنشأ بعض الطلاب الهنود في لندن في بداية هذا القرن جمعية لهم، وكانوا يناقشون في هذه الجمعية السياسة الهندية بشكل بالغ التطرف، كانوا دائماً متحمسين متطرفين»

أما «نهر» فكان قليلا ما يتكلم في هذه الجمعية، ولذلك كان هؤلاء الطلاب المتحمسون يوجهون إليه اللوم دائما بسبب عدم حماسه، ثم مرّت الأيام وعاد الطلاب ومعهم «نهر» إلى الهند، فاكشف بعد ذلك شيئا عجيبا، يقول «لقد وجدت هؤلاء المتحمسين بالذات قد أصبحوا موظفي إدارة الانتداب الإنجليزية في الهند، ولم يلعبوا في الحركات السياسية أي دور فعّال، أين ذهب سخطهم على الإنجليز؟ أين ذهب حماسهم العنيف؟ كل هذا قد تبدّد على المكاتب الفاخرة التي أعدّها الإنجليز لهم في الهند»

فهؤلاء المتحمسون الذين كانوا يضربون المناضد بأيديهم كانوا في الحقيقة هم أقلّ الناس عاطفة نحو الهند، كانوا مثل زبد البحر الذي يذهب جفاء وصراخا بلا نتيجة.

بينما «نهر» كان يحمل عاطفة عميقة صادقة تجاه وطنه ومجتمعه، لم يلجأ إلى الكلمات الرزّانة والمزخرفة والمبالغات الزائدة، بل كان بعاطفته الهادئة ينتظر الفرصة المناسبة، لتظهر بقوتها الحقيقية في وقتها المناسب، وهذه العاطفة الناضجة الصادقة تتحرر من العناصر الزائفة، التي تصبح عاطفة سليمة تعبّر عن نفسها تعبيرا مناسباً.